



في رحاب التوراة

دراسات وجارات روحانية مُعمّقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
[Covenant & Conversation](#) | [Beha'alotecha](#) | [From Despair to Hope](#) | [The Rabbi Sacks Legacy](#)

"**ببهاعلوتخا**" هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "بمّدبار" (أي سفر العدد). يبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثامن، وينتهي بالآية السادسة عشر من المقطع الثاني عشر.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

مِنَ اليأسِ إلى الأملِ

إنني لا أبالغ أبداً حين أقول بأن جزءاً من هذا النصّ الأسبوعي كان بمثابة مُنقذٍ لحياتي خلال فترة معينة، إذ لا يوجد منصبٌ قياديّ هينٌ أبداً، لا سيما حين يتعلّق هذا المنصبُ بقيادة اليهود. والقيادة الروحية هي أصعبُ أنواع القيادة على الإطلاق، فعادة ما نرى القادة الروحيين يتمتّعون بشخصيات هادئة مُتفائلة مُستبشرة، لكن خلف الكواليس تجد بداخلنا عاصفة من المشاعر والعواطف المُختلفة حين نرى عمق الانقسام بين الناس، أو حين ندرك مدى تعقيد بعض المشكلات التي نواجهها ومدى هشاشة الأرضية التي نقف عليها في بعض الأحيان. ربّما نمزج جميعاً بمثل هذه التجارب خلال مرحلة معينة من مراحل حياتنا، حين نُدرك مكان وجودنا مقارنةً بالمكان الذي نريد أن نكون فيه في خضمّ عجزنا عن إيجاد مسارٍ بين المكنين، وهذا بمثابة بدايةٍ تُمهّد لحالةٍ من اليأس والإحباط.

وفي كل وقتٍ تملكتني هذه المشاعر كنتُ أعودُ إلى ذلك الموقف البائس الذي تطرّق إليه هذا النصّ الأسبوعي، عندما شَعَرَ نبيّ الله ورسوله موشيه/موسى بأنه في قَمّة يأسٍ وإحباطٍ، والمُسبّب لحالة اليأس التي شعر بها كان يبدو سخيلاً للوهلة الأولى، وهو أن قومه كانوا يُمارسون نشاطهم المفضل: التذمّر من الطعام! لقد سادت بينهم حالة من الحنين الخادع الذي جعلهم يشتاقون لمذاق السمك والخيار والبطيخ والكراث والبصل والثوم الذي كانوا ينعمون به في أرض مصر، بمعنى آخر: لقد اختفت تجربة العبودية تماماً من ذاكرتهم، والأمر الوحيد الذي كانوا يذكرونه من تلك التجربة هو الطعام فقط، وبالطبع يُمكننا تفهّم مشاعر الغضب والسخط التي شعر بها الله عزّ وجلّ تجاههم نتيجة ذلك (تبعاً لما تذكره الآية العاشرة من المقطع الحادي عشر من سفر العدد). في الوقت نفسه كان موشيه أكثر غضباً، بل كان في حالة انهيارٍ عاطفيّ تام إن صحّ التعبير، لهذا خاطب الله عزّ وجلّ قائلاً:

" فَقَالَ مُوشِيهِ لِلَّهِ: لِمَاذَا أَسَأْتُ إِلَى عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أُجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنْكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟ لَعَلِّي حَبَلْتُ بِجَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ؟ أَوْ لَعَلِّي وَلَدْتُهُ، حَتَّى تَقُولَ لِي أَحْمِلُهُ فِي حِضْنِكَ كَمَا يَحْمِلُ الْمَرْبِيُّ الرَّضِيعَ... مِنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ؟ لِأَنَّهُمْ يَبْكَونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْمًا لِأَكْلِكِ. لَا أَقْدِرُ أَنَا وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ لِأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيَّ. فَإِنْ كُنْتُ تَفَعَّلُ بِهَذَا هَكَذَا، فَاقْتُلْنِي قَتْلًا إِنَّ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، فَلَا أَرَى يَلِيَّتِي " (تبعاً لما تذكره الآيات 11-15 من المقطع الحادي عشر من سفر العدد).

إنني أرى قمة اليأس والإحباط في تلك الكلمات، لهذا كنتُ دوماً أعودُ إلى هذا الجزء تحديداً في كل مرة كنتُ أشعر فيها بشعور مُماثل لأقولُ لنفسِي: "إذا لم أصل لمرحلة اليأس والإحباط التي وصل لها موشيه فأنا لا زلتُ بخير". وبطريقة أو بأخرى، فإن مجرد معرفة أن أعظم قائد يهودي عبر التاريخ قد مرَّ بتجربة بهذا العمق من الظلام هو أمرٌ مُشجّع بحد ذاته، لأنه يقول لك ببساطة أن شعورك بالفشل لا يعني بالضرورة أنك فشلت فعلاً، بل ما يعنيه أنك لم تنجح بعد. بالتالي لا تعني تلك التجربة بأنك شخصٌ فاشل، بل تعني النقيض من ذلك، لأن الفشل لا يُرافِقُ أولئك الذين يتخذون قراراً بالمُجازفة، وبالطبع فإن الرغبة في المُجازفة هي أمرٌ ضروريٌ جداً حين يطمحُ المرءُ لإحداثِ تغييرٍ إيجابي في العالم حتى لو كان هذا التغييرُ ضئيلاً.

لكن الأمر المُذهل فعلاً في التناخ* هو الأسلوب الذي ينتهجه لتوثيق ليالي الظلام الروحي الحالك في حياة واحدٍ من أعظم أبطال الروحانية. فالقارئ لهذا النص يجد أن موشيه لم يكن الشخص الوحيد الذي يدعو الله عزَّ وجلَّ طالباً منه الموت، بل يوجد ثلاث أشخاص آخرين فعلوا الأمر: الأول هو النبي إيلياهو/إلياس تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع التاسع عشر من سفر الملوك الأول، والثاني هو النبي يرمياهو/إرمياء تبعاً لما تذكره الآيات 7-18 من المقطع العشرين من سفر إرمياء، والثالث هو النبي يوناه/يونس تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع الرابع من سفر يونا.¹

كما يوضح سفر المزامير العديد من المواقف التي تنطوي عليها ملامح اليأس والإحباط، خاصة تلك المتعلقة بالملك داوود/داوود، فمثلما تقول الآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين: **إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي**، والحال نفسه ينطبق على الآية الأولى من المقطع المائة والثلاثين والتي تقول: **مِنَ الْأَعْمَاقِ صَرَخْتُ إِلَيْكَ يَا اللَّهُ**، أضف إلى ذلك مثلاً آخر وهو الآيات 5-7 من المقطع الثامن والثمانين والتي تقول: **بَيْنَ الْأَمْوَاتِ فِرَاشِي مِثْلُ الْقَتْلَى الْمُضْطَجِعِينَ فِي الْقَبْرِ، الَّذِينَ لَا تَذْكُرُهُمْ بَعْدَ، وَهُمْ مِنْ يَدِكَ انْقَطَعُوا... وَضَعْتَنِي فِي الْجُبِّ الْأَسْفَلِ، فِي ظُلُمَاتٍ، فِي أَعْمَاقٍ. عَلَيَّ اسْتَقَرَّ عَضْبُكَ، وَبِكُلِّ تَيَّارَاتِكَ ذَلَّلْتَنِي**.

بالتالي فإن الرسالة التي يريدُ التناخ أن يوصلها لنا من خلال تلك القصص هي رسالةٌ تحريية بل وثورية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فاليهودية ليست وصفة للرخاء والهناء في الحياة، كما أنها ليست ضماناً للمرء بأنها ستكف عنه الألم أو الأذى، وهي بالطبع ليست مرحلة الـ "*apatheia*" (حالة ذهنية لا تضطرب فيها المشاعر أبداً) التي تحدت عنها الفلسفة الرواقية. ثم إن اليهودية ليست طريقاً نحو الـ "*nirvana*" أي إطفاء لهيب المشاعر عبر تدمير الذات. في الحقيقة توجد جوانب روحانية جميلة لهذه الأمور سألقة الذكر، ويوجد لكل منها مُرادف أو شبيهه في الجوانب الصوفية للروحانية اليهودية، لكنها بعيدة كل البعد عن عالم الأبطال التي تحدت عنه التناخ. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا؟

إن السبب واضحٌ جداً، وهو أن اليهودية هي الدينُ والمُعتقدُ لأولئك الذين يطمحون لتغيير العالم، وهذا أمرٌ استثنائيٌ جداً في تاريخ الأديان عموماً، لأن غالبية الأديان والمعتقدات تتمحور حول قبول العالم كما هو، في حين أن اليهودية هي بمثابة اعتراض على هذا العالم تحت شعار الحال الذي يجب أن يكون عليه هذا العالم. لذا فإن تكون يهودياً يعني أن تسعى

*ملاحظة توضيحية من المترجم: التناخ هي كلمة تختصر الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نفيثيم، كتوفيم" (أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سفر يوشع، وسفر القضاة وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول والثاني وسفر إشعيا وسفر إرميا وسفر حزقيال، وسفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضم الهاغويوغرافيا، أي كُتب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضم أحد عشر كتاباً، وهي سفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر أيوب، وسفر روث (راعوث)، وسفر نشيد الإنشاد، وسفر الجامعة، وسفر مراثي إرميا، وسفر أستير، وسفر دانيال، وسفر عزرا ونحميا، والجزء الأخير من التناخ يضم أسفار تدوين التاريخ. بالتالي يضم التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سفرًا (كتاباً).

لإحداث تغيير معين، يعني أن تُغيّر حياة الآخرين للأفضل، وأن تكون سبباً في شفاء الآلام التي يُخلّفها عالمنا المُحطّم. لكن مع الأسف الشديد نجد أن البشر لا يُحبّون التغيير، لهذا نجد أشخاصاً مثل موشيه والملك دافيد والنبي إياهو والنبي يرمياهو وغيرهم كانوا يعيشون حياة شاقّة جداً.

وبالعودة إلى قصة موشيه فإنه بإمكاننا رؤية السبب المحدد الذي قاده نحو اليأس والإحباط، خاصة وأنه واجه تحدياً مُثملاً في السابق، وهذا ما يوضحه لنا سفر الخروج حين تدمر بنو إسرائيل من الأمر نفسه تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع السادس عشر والتي تقول:

"وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَيْتَنَا مِثْلًا مِثْلًا بِيَدِ اللَّهِ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشَّبَعِ. فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هَذَا الْقَفْرِ لِكَيْ نُمِيتَا كُلَّ هَذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ."

وخلال هذا الموقف لم يكن موشيه في حالة من الانهيار لأن الناس كانوا جوعاً، فكانوا فعلاً بحاجة ماسة للطعام، وهذا أمر مشروع بالطبع. لكنهم ومنذ ذلك الموقف مرّوا بتجربتين بارزتين جداً، وهما تجربة تجلّي الله عز وجل فوق قمة جبل سيناء، والثانية هي بناء مكان العبادة المقدس في الصحراء (المشكان). وخلال هاتين التجربتين نجد أن بني إسرائيل قد اقتربوا من الله عز وجل أكثر من أي شعب آخر، كما أنهم لم يكونوا جوعاً أبداً، لأن فحوى شكاوهم لم تكن عدم وجود الطعام، فالله عز وجل بعث لهم بالمن، لكن شكاوهم وتذمّرتهم كان أساسها حالة الملل من تناول نفس الطعام مراراً وتكراراً تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع الحادي عشر من سفر العدد: "والآن قد يبست أنفسنا، ليس شيء يعيننا سوى هذا المن!". بمعنى آخر، فقد وصل بنو إسرائيل إلى قيمة الروحانية، لكنهم ظلّوا في حالة من التمرد وإنكار الجميل وظلّوا يفكرون بعقلياتٍ محدودة الأفق، تماماً كما كانوا في السابق.²

لقد كانت هذه الحالة هي السبب الذي جعل موشيه يشعر وكأن مهمته فشلت فشلاً ذريعاً، وبأن هذا الفشل سيكون رفيق دربه لاحقاً. فمهمته تتلخص في مُساعدة بني إسرائيل على بناء مجتمع مُخالف تماماً للمجتمع الذي عاشوا فيه عندما كانوا في مصر، مجتمع يُحررهم بدلاً من أن يقيمهم ويظلمهم، ويمنحهم الكرامة بدلاً من العبودية، لكن لم يكن يبدو هذا التغيير ظاهراً على بني إسرائيل خلال تلك المرحلة، بل كان الواقع أسوأ بكثير من ذلك، لأنهم سلّموا أنفسهم لمشاعر الحنين الخادع لمظاهر سخيّة من مظاهر حياتهم في مصر والتي تتمثل في السمك والخيار والثوم وباقي الأمور التي ذكرناها سابقاً. وحينها أدرك موشيه مدى سهولة إخراج بني إسرائيل من مصر، ومدى صعوبة إخراج مصر من بني إسرائيل، مُفترضاً افتراضاً منطقياً يقول بأنه إن لم يكن هنالك تغيير حقيقي لدى قومه خلال تلك المرحلة فهذا يعني أنهم لن يتغيروا أبداً، الأمر الذي جعل موشيه وكأنه يتجرّع كأس الهزيمة، بالتالي لم يكن هنالك أي معنى للمضي قدماً في تلك المهمة.

وهنا يتدخلُ الله عز وجل بطمئنة موشيه، ففي بداية الأمر طلب منه أن يجمع سبعين شيخاً من شيوخ بني إسرائيل حتى يُشاركوه عبء ومسؤولية القيادة، ثم طلب منه ألا يقلق بشأن الطعام، لأن بني إسرائيل سيحفظون عمّا قريب بالكثير من اللحوم والتي جاءت على شكل فوجٍ هائلٍ من طيور السمّان.

كما أنّ قصة الروعة في هذه القصة تتمثل في أحداثها القادمة، أي حين يظهر موشيه وكأنه تغرّب كلياً، فحين خاطبه يهوشوع/ يوشع بن نون موضحاً له بأن قيادته لبني إسرائيل محفوفة بالتحديات، أجابه موشيه قائلاً: "هَلْ تَعَارُ أَنْتَ لِي؟ يَا لَيْتَ كُلَّ شَعْبِ الرَّبِّ كَانُوا أَنْبِيَاءَ إِذَا جَعَلَ الرَّبُّ رُوحَهُ عَلَيْهِمْ" تبعاً لما تذكره الآية التاسعة والعشرون من المقطع الحادي عشر من سفر العدد. وفي المقطع اللاحق لهذا المقطع يبدو موشيه في قمة الرّصانة والهدوء حين كان أخوه وأخته يوجّهان له الانتقادات. وحين عاقب الله عز وجل شقيقته النبيّة مريام/مريم، كان موشيه يدعو لله بالنيابة عنها، وفي هذا الموضع تحديداً نجد الوصف الذي وصفه بها التناخ، حيث تقول الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر العدد: "وَأَمَّا موشيه فَكَانَ حَلِيمًا جَدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ".

وتوضّح لنا التوراة وصفاً مميزاً جداً للدديناميكية النفسية للخروج من الأزمات العاطفية، مُبينة لنا بأنه من المهم جداً في بداية الأمر ألا نكون لوحدينا أثناء شعورنا باليأس والإحباط، ففي قصة موشيه كان الله عزّ وجلّ بمثابة المُطمئن له، فكان الله هو الذي انتشل موشيه من قمة يأسه وإحباطه مُخاطباً المخاوف التي سيطرت عليه، موضحاً له بأنه لن يكون بمفرده في المستقبل أثناء قيادة بني إسرائيل، بل سيكون هناك آخرون يؤازرونه في هذه المهمة. ثم يُخبره الله عزّ وجلّ ألا يقلق حيال تدمير بني إسرائيل من الطعام، لأنهم سيحظون عما قريب بلحمٍ وفيرٍ لدرجة أنهم سيَمرضون منه، بالتالي لن يتذمروا من مسألة الطعام أبداً بعد ذلك.

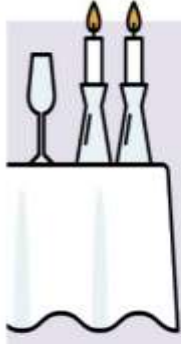
إن هذه المبادئ الأساسية هي التي قصدها كبار الحاخامات حين قالوا: "لا يُمكن للأسير إعتاق نفسه بنفسه" (تبعاً للبراهوت 5-ب). بالتالي فإننا بحاجة ليدٍ تنتشلنا من عمق يأسنا وإحباطنا ولا يمكننا أن نفعل ذلك بمفردنا، ولهذا السبب تحديداً نجد أن اليهودية نُصّر دوماً على عدم ترك الإنسان وحيداً حين يكون في قمة ضعفه ووهنه، والأمثلة زاخرة وعديدة على هذا المبدأ، مثل التأكيد على أهمية زيارة المريض ومواساة ذوي الميت، والتأكيد على زيارة من ليس لهم أحد (الغريب واليتيم والأرملة) أثناء الأعياد والمناسبات الدينية، هذا بالإضافة إلى تأكيد اليهودية على مسألة الضيافة ووصفها بأنها "تكاد تكون أعظم من السكنية (شخيناها)" (تبعاً لباب الشبات 127-أ). ونظراً لأن حالة الاكتئاب تجعل المرء مُنعزلاً عن غيره من البشر، فإن البقاء وحيداً سيزيد من عمق اليأس والإحباط، وفي قصة موشيه ربما لا يبدو من الواضح شكل المساعدة التي قدّمها له الشيوخ السبعون، إلا أن وجودهم بجانبه كان جزءاً من مساعدتهم له في الخروج من حالة اليأس والإحباط دون أدنى شك.

والأمر الثاني الذي توضحه لنا التوراة هو أن الخروج من حالة اليأس والإحباط هو بمثابة تجربة تترك أثراً كبيراً على شخصية المرء، ففي تلك المرحلة التي تكون الذات موجودة في الحضيض حيث يُدرك الإنسان بأن هذا العالم لا يتمحور حول الذات، بل يتمحور حول الغير وحول القيم والمبادئ والإحساس بوجود مهمة وغاية في هذه الحياة، فالمهم في نهاية المطاف هو القضية وليس الشخص، وهذا هو المعنى الحقيقي للتواضع. وفي هذا السياق أستذكر مقولة تُنسب للكاتب الإيرلندي سي إس لويس: "إن التواضع لا يعني التقليل من الذات، بل يعني التقليل من التفكير في الذات".

لهذا عندما يمرّ المرء بتجربة مماثلة من الإحباط واليأس مهما كانت قسوتها، فإنه سيُصبح أقوى بكثير مما مضى حين يخرج منها، وسيصل لدرجة من القوة والرصانة التي قد لا يُصدقها هو نفسه، لأنه أدرك أن عليه ألا يضع ذاته على المحكّ، ووصل لقناعة بأنه لا يجب أن يُفكر انطلاقاً من مركزية ذاته على الإطلاق، وهذا ما عبّر عنه الحاخام يوحنا حين قال: "العظمة تكمن في التواضع"³، بمعنى أن العظمة في الحياة تبدأ حين تمضي قدماً نحو الخارج تجاه الآخرين ومعاناتهم، وبأن معاناتهم تعني لك الكثير أكثر من معاناتك نفسها. كما أن ميزة العظمة تكمن في احتوائها على القوة واللين في الوقت نفسه، فهاتان هما أعظم قوتين للشفاء في الحياة البشرية.

لقد كان موشيه يعتقد بأنه فشل في مهمته، وهذه لحظة تستوجب منا الوقوف عندها في كل مرة نعتقد بأننا فاشلون، لكن رحلة خروجه من اليأس والإحباط وانتقاله لمرحلة القوة النابعة من عدم تركيزه على ذاته هي واحدة من أعظم الروايات النفسية في التوراة، وهي بمثابة درسٍ صالحٍ لكل زمانٍ وكل مكانٍ حول كيفية بناء واستحضار الأمل.

1. بالطبع ينطبق الأمر على إيوف/ أيوب أيضاً، لكنه لم يكن نبياً. وبالاستناد إلى الكثير من المفسرين اليهود فإنه لم يكن يهودياً، لكن كتابه يتطرق لقضية أخرى، وهي لماذا تحدث الأمور السيئة في حياة الأشخاص الصالحين؟ وأنها قضية تتعلق بالله عزّ وجلّ، لا بالبشر.
2. لاحظ بأن النصّ ينسب الشكوى والتذمر لما وصفه النصّ بعبارة "أسفسوف" (بحسب ما يذكر سفر العدد في المقطع الحادي عشر الآية الرابعة)، والتي وضّح بعض المفسرين بأنه تعني الأشخاص من غير اليهود الذين لحقوا بني إسرائيل أثناء خروجهم من مصر وانضموا إليهم رغم أنهم لم يكونوا منهم.
3. المصدر: Ekev, Pesikta Zutrata.



حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

- 1- برأيك لماذا تضمنت التوراة قصصاً لشخصيات يهودية عظيمة وهم يواجهون الفشل واليأس في حياتهم؟
- 2- هل سبق وان واجهت الفشل والاحباط في حياتك كما حدث مع نبي الله موشيه/موسى في هذا النص الاسبوعي من نصوص التوراة؟
- 3- هل يمكنك تطبيق أي من الدروس والعبر التي اراد الله ايصالها وتعليمها لموشيه/موسى بشكل يساعدك خلال المصائب والأزمات؟

- These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/behaalotecha/from-despair-to-hope/>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

